الربيع[1]

دار الفلك دورته، وعاد سيرته، فسرت في أعصاب الأرض هزة الحياة، وتفجرت عروقها بالمياه، وسالت قمم الجبال جداول وأنهارًا، واشتعلت الأرض أزهارًا وأشجارًا.

تبرَّجت بعد حياء وخفر تثني على الله بآلاء المطر

قد صرَّحت الأرض بمكنونها، وأبانت الحياة عن ضميرها، فنبتت معاني الحياة والجمال في ألفاظ من الأوراق والنوار.

باح الربيع بأسرار البساتين وعطَّر النفس أنفاس الرياحين

ونفخت أنفاس الربيع الحرَّى الحياة في كل ذرة، فأخرجت قواها أعشابًا وأزهارًا، فرقتها ألوان، وألفتها معان.

لم يبق للأرض من سر تكاتمه إلا وقد أظهرته بعد إخفاء
أبدت طرائف شتى من زواهرها حمرًا وصفرًا وكل نبت غبراء

[1] ذو الحجة سنة ١٢٥٣/مارس سنة ١٩٣٥.

أي مسرح للفكر، وأي مجال للخيال، وأي مراد للطرف!

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هي منظر

والطير مغردات كأن أصواتها ذوب هذه الألوان، وكأن ألوان الروض جمد هذه الألحان. يهتز الطائر الغريد، على الغصن الأملود، فيقرأ ما تحته من صفحات الجمال، فكأنما الطير إبر الحاكيات، تنطق بما تضمنت الصفحات من نغمات،[٢] والعصفور مرح تتداوله الأغصان، وتتهاداه الأفنان، تارة في انتزاء بين الأرض والسماء، وتارة تغيبه الحديقة، كأنه في هذا الجمال فكرة دقيقة، صغير تملأ الهواء نغماته، ضئيل تشغل الجو خفقاته.

والفَراش قلق بين النوار، هائم بين الأزهار، لا يقر له قرار، كأن كل فراشة زهرة طائرة، أو قُبلة بين الأزهار حائرة، أو نغمة في جمال الروض سائرة!

والشعراء ينافسون الطير على الأيك طربًا وتغريدًا، وفي المرج تسبيحًا وتحميدًا، تنبجس في جوانبهم ينابيع البيان، وتتفتح سرائرهم على أزهار الشعر؛ ففي كل قلب ربيع، ومن كل قصيدة روضة، وفي كل معنى زهرة، وعلى كل قافية نضرة.

هكذا تفيض الحياة على الجماد والنبات والحيوان، وينتظم الجمال الخليقة والإنسان، كأنما العالم كله فكرة واحدة، أو قصيدة خالدة.

ذلكم الربيع الذي فتن الناس، فافتنُّوا في وصفه والإبانة عن محاسنه، والإشادة بذكره، والاحتفال بمقدمه، فاتخذته الأمم على اختلاف المذاهب عيدًا، ومجَّدته بشتى الوسائل تمجيدًا، وأولع به الشعراء في كل قبيل، ولم يخلُ من المفتونين به جيل.

والناس في مصر ربيع دائم، من أرضهم وسمائهم، وزرعهم ونيلهم، فهم لا يحسُّون مقدم الربيع إلا قليلًا. ولو أنهم عرفوا كلَب الشتاء، وانجماد الهواء، وقشعريرة الأرض وقسوة السماء، ورأوا كيف تموت الطبيعة في زمن، وتلتف من الثلج في كفن.

[٢] الحاكيات: جمع حاكية وهي الفوتوغراف، والصفحات: هي الألواح التي فيها الأصوات.

وقد غاب في الثلج الربيع وحسنه كما اكتن في بيضٍ فراخُ الطواوس

ثم شهدوا كيف يأتي الربيع، فيكهرب كل ذرة، ويفيض كل عين ثرة، ويخلق كل نضرة — لاحتفوا بالربيع، وعرفوه يقظة بعد هجود، واشتعالًا بعد خمود، ورأوا فيه النشور بعد الموت، والإدراك بعد الفوت.

على أن للربيع في مصر دقائق يُسرُّ لها الإنسان، وشِيات يدركها الشعراء في كل زمان.

جاء الربيع فليت في كل قلب من صفائه قطرة، وفي كل نفس من جماله زهرة، وفي كل خلق من عبيره نفحة؛ لتعمر النفوس بمعاني الحياة، وتستنير بأشعة الجمال، ويسكن الناس إلى السعادة حينًا، وينسوا أساليب العداوة والبغضاء زمنًا. وليت الناس جروا مع الحياة طلقها، ولم يفسدوا على الطبيعة خلقها، فأنبت الربيع في كل قسوة رحمة، وفي كل يأس أملًا، وفي كل حزن سرورًا، وفي كل ظلام نورًا. ليتهم اجتمعوا على ورد الحياة متصافين، كما ترفُّ على جداول الربيع الرياحين.